قراءة في ديوانين

« يألفونـــك فانفر »... و « الطريق الى حيفـــا »

عبد الرحمن حمادي

حضرني وأنا أهم بتناول ديوانين من الشعر لشاعرين عربيين قول لا اذكر قائله ، يتحدث عن ماهية الشعر ، هو : « واسعة خطوة الشمس ، واوسع منها يد وفم يرفضان رغيف المماليك .. أوسع منها غيوم القصائد في القلب .. » ، وربما زاد الحاح حضور هذا القول لذاكرتي وانا أقرأ في الديوان الاول من الديوانين المعنون بـ « يألفونك فانفر (١)» ، للشاعر العربي السوري « ممدوح عدوان » .

لقد ترددت في البداية من أن أكتب عن هذا الديوان لامرين ، اولاهما : أن الديوان ليس نتاجا جديدا يطرح في السوق الادبية اول مرة ، وثانيهما ان كتابات نقدية عديدة نشرت عنه هنا وهناك ، ولكن وقد شرعت في الحديث عنه كان عزاء شروعي هذا هو لذة العودة دائما الى الاعمال الفنية الاكثر تغلغلا في حياتنا وفاعليتها في نفوسنا .

اشارات دينية :

تكتشف بسهولة في (يألفونك فانفر) تعامل الشاعر الواعي مع المسائل الدينية ، وتوظيف هذه المسائل لصالح القصيدة الحديثة شكلا ومضمونا ، بكل جوانبها القرآنية والصوفية ؛ ولنا ان نقف عند بعض هذا التعامل وقفة قصيرة ، يقول :

« همس السقف الاجرد
« يا عبد اللات
« سيفك مدفون في غار حراء
« اذهب للغار تشاهد رجلا يتعبد
« قف بالباب وناد : محمد
« ليجيبك : يا عبد الله
« ينفض من عينيه كسل النجوى
« وتسيران بسيفين
فينتفض الفقراء
« وتعيدون النبع الى الصحراء » .

في هذا المقطع اشارة واضحة للقصة العينية المعروفة عن ظهور الملك جبرائيل للنبي محمد في غار حراء لاول مرة وتبليغه الدعوى ، وحيث نزلت الايات القرآنية « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك ... » . (٢)

وفي مكان اخر من الديوان نلاحظ ان الشاعر يعتمد اسلوب المزج الفني بين السور القرآنية ، مثل قوله :

« واذا زلزلت الارض
وواتاها مخـاض
في جذع النخل أهوى
أخرجت أثقالها »

انه يمزج بين آيات من سورتين في القرآن ؛ من سورة الزلزلة « واذا زلزلت الارض زلزالها ، وأخرجت الارض أثقالها ، وقال الانسان مالها ...(٣) » ، ومن سورة مريم « فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتني مت قبل هذا ، وكنت نسيا منسيا (٤) » .

يقول في مكان آخر :
« وحين وجهت وجهي اليه احترقت
وحولت وجهي اشتعلت اشتياقا
أحدده بالرغائب واللمس
ابدأ جـوعي »

انه كما نلاحظ بسهولة يعمد الى الاتكاء على الدعاء الديني المشهور بدعاء الثناء ، الذي يردده المسلمون في صلاتهم كل يوم ، نقلا وسنة عن الرسول محمد : «وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا مسلما وما

أنا من المشركين . قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ...» .

وعندما يقول :

« والليل ضوء عليك
وهذا النهار ستار
وأنت لباس »

يعتمد قوله تعالى : « وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ... (٥) » .

من الاشارات القرآنية التي نلمحها ايضا في الديوان قوله :

« قل أعوذ بما ظلّ فيّ
الى ألم
كنت فيه الربابة والجراح
وهذه السماء هواء
فلا تسترح للخديعة في جنة
تحتها النهر يجري »

فهنا اسقاط لقوله تعالى : « قلْ اعوذ برب الناس، ملك الناس (٦) »، وقوله : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها (٧) ..»

وكما نلمح اشارات قرآنية في الديوان ، نلمح ايضا اشارات لاحاديث نبوية شريفة ، ولنأخذ المثال التالي :

« قل اعوذ بحزني الذي يفتح الوطن ـ الدمع
والغربة ـ الجرح
يشعل في الصمت رعدا
يؤلب أوجاعك الساكنات مظاهرة » .

فقد ورد في صحيح بخاري عن سند موثوق عن ابن عباس قال : سألت النبي (ص) عن افضل الدعاء فقال : قل أعوذ من الغربة ، ومن الفقر في الشيبة ، ومن الدّين ، وشر الختام » .

ممدوح عدوان يلجأ في تعامله الديني الى التصوف، فيستفيد ايضا من التراث الصوفي العربي ، فلئن كان الصوفي في اوقات كثيرة يغرق في بحر من الحيرة في اكتناه حقيقة الخالق ، فيصل الى قمة الشفافيةالروحية والجسدية بتمازج الغيبوبة مع الذهول وصولا الى استشعار القرب من المحبوب الخالق بشكل يغريهبالانتحار طلبا لسرعة الوصول اليه ، لئن كان ذلك ، فان ممدوح عدوان يتقمص الحالة نفسها في فنية قصيدته :

« وأبرق
أبصرت وهج التضاريس
قلت انتهينا
وحرقة عمري تمتد
اصابعها ظمأ ناشف
راح يغوي باغماض عيني
القاء نفسي في الماء
أحيا به سمكا
وأسير عله كما يفعل الانبياء ».

ان حيرة الصوفي موظفة بروعة في عالم ممدوح ، فالدعاء الصوفي الموجه للحبيب الحاضر ـ الغائب ، القريب ـ البعيد ، نستشفها بسهولة في هذا المقطع مثلا :

« ايها الاخضر المرتجى في الملمات
تكشف
ويا أيها الاحمر المشتهى في الرجاء
تكشف
انا جبل يشتهيك » .

ولعل هذه الحالة تنضج اكثر في قوله :

« كيف جئت ولم تأتني بعيون تراك
وكف تشمك
أو لغة تحتويك
الحروف تضيق كنفسي
ويبقى مكانك حيث أحسك ».

ان اشارات ممدوح عدوان الدينية في ديوانه التي لم نمر الا على بعضها فقط ، تعطينا مثالا متقدما لمهارة الشاعر في تناول زاوية من زوايا تراثنا الفني ، واسقاط هذا التناول على قصيدتنا الحديثة .

المرأة :

في (يألفونك فانفر) ، يبدو ممدوح عدوان مثالا كاملا لتعامل الفنان المتعدد الوجوه مع المرأة ، فهي في تفجر بعض الانفعالات تمثل حقيقة الجوع والاحساس بالغربة الناجمة عن بعدها ، وصعوبة الوصول اليها ، لهذا نسمعه يطرح الدعوة صريحة اليها كي تحضر اليه ، فتملأ عالمه العاطفي ، وتدفيء جسده الراغب الالتحام بها :

« اقبلي مثلما أنا أقبل
اخلع عني ثيابي
وعمري القديم
وغربتي القاسية » .

وعندما تحضر تفجر في نفسه لحظة الفرح الطفولي العارم ، فيطرح اعترافه بشوقه وحاجته لها :

« وها انت قدامي
وبين يدي ترتعشين
بين يدي ينتظر التوثب والتحفز
تقطر الاشواق ».

ولكن رغم اللقاء ، ورغم حضورها ، يبقى الشبق متفجرا ، والشوق متجددا :

« ها انت ايقظت الجحيم
حملتـه
نادى اذا القمته جوعي
أمزيدا منـك
أحرق ما لديك من الضنى الشبقي
والحرمان والرهبة » .

انه جائع للمرأة اذن ، ومن هذا الجوع الدائم نراه يندفع الى مواقف تشريحية للجسد الانثوي بشكل مفصل واضعا تخيلات وافتراضات حارة على تشريحه :

« وأمر فوقك ببطئا
مثل الضبـاب
على مسابـك صدرك الرحبة
وأزج فوقك
زاهدا بكهوفك الرطبة
ابقى ارتعاشا لامسـا
فوق انزلاقة بطنك الريان
متمرغا في النهد
في الساقين
في الرقبـة
في مسحة البطن الرخيم
وفي تناغم زلفة الركبة » .

ان المرأة بلا شك تشكل جزءا لا ينفصل من هموم الشاعر الشكلية ، ومن الظلم أن نقول بأن نظرة الشاعر للانثى جسدية مستقلة ، انها تظهر في تعاملات اخـرى للشاعر بصورة مغايرة ، يتجسد فيها الوطن ، وتظـهر القضية .

الوطن ـ القضية

ولا أقصد طبعا ذلك المفهوم المدرسي المجرد للوطن المحدد بالتراب والمساحة ، بل أقصد به الوطن الشامـل الذي يعني الحرب والسلام والتضحيات ، الوطن الفقـر والتناقضات والاضطهاد ..

من بين كل هذه الامور يبقى الوطن ، لانه هو المكان الذي يحسه الشاعر بضياعه فيه ، بانسحاقه وآلام نفسه الشاعرة الحساسة :

« كنت لي وطنا واتيتـك
كيف تحولت منفى
بدوت لي على الافق مرفأ للامان
فتهت باسـواقه »

هو الوطن الذي تضخم حب الشاعر له ، لكنـه كان يقايض حب الشاعر هذا له بالغربة والجوع :

« أراه كما صورته المجاعة خبزا
ولكن عري المباهج عذبني » .

ولكنه يبقى رغم كل تناقضاته المحبوب الاول الذي يصبح ظلمه لدى المحب نشوة ، وقساوته رضاء :

« ولكنه حاضر في جموحي
فكل الذي بان منه عذاب وعشق
وكل الذي يحتفي أمل »

فلا يجوز عنده سوى العتاب الرقيق ، وشكـوى العاشق للمعشوق :

« لماذا اذن
كلما ازددت نحوك قربا تعبئني غربة »

انه لا يبعد عن الحقيقة ابدا ، حقيقة الحب الذي يكنه لهذا الوطن فيصرخ في عنوان احدى قصائده :

« هـذا هو الحب اذن »

لكن هذا الوطن في سوداوية قاتمة جدا ، كـل شيء فيه يسير على عكس الاتجاه الصحيح ، تنـاقضات واضطهادات وانسحاق دائم ، بينما :

« تبقى الذئاب تلوب في الظلماء »

والحل ؟!

الحل عند الشاعر يأتي بالرفض الذي نحسه في كل كلمة من كلمات الديوان ، فقد آن لهذه الامـة ان تصحو وان تنفض كسل القرون عن عينيها ، وان تشق طريقا مشرفا باتجاه الفجر القادم :

« قف بالباب وناد : محمد
« ليجيبك يا عبد الله
« ينفض من عينيه كسل النجوى
وتسيران بسيفين
فينتفض الفقراء
وتعيدون النبع الى الصحراء »

* * *

اما الديوان الثاني فهو (الطريق الى حيـفا (٨)) للشاعر العربي الفلسطيني (نظيم ابو حسان) ، وهـو من المنشورات التي تطرح حديثا في السوق الادبية .

لقد كانت لحظة سعيدة ، وانا افض صفحات نسخة من الديوان خصني الشاعر بارسالها الي مشكورا ، لحظة سعيدة لان صوتا ادبيا شابا يطرح تجربته الشعرية لاول

مرة في ديوان مستقل ، وان يظهر ديوان لشاعر شاب فذلك يعني تقدما للحركة الادبية الشابة في وطننا ، الحركة التي نال حقها بخس شديد لعدم تمكن نشر نتاجات اصواتها ، لتسلط الاسماء الكبيرة على وسائل النشر والطبع الرسمية عندنا .

القصائد تجربة للشاعر تمتد على مسار عدة اعوام، تبدأ من عام ١٩٧٢ وحتى عام ١٩٧٥ ، وهي قصائد متفرقة قام الشاعر بنشر اغلبها في صحف ودوريات القطر العربي السوري كما اذكر .

ان نظيم في ديوانه يشكل سيلا ثوريا هادرا لا مكان للتوقف فيه ، فالثورية تنفجر في كل قصائد الديوان بدون استثناء ، ثورية الانسان العربي اولا ، فالانسان الفلسطيني ثانيا ، وبين الثوريتين ثورية العالم المناضل ضد الاستعمار والاستغلال في كل مكان ، وكل هذا يصب في بوتقة واحدة هي عند الشاعر (ثورة الرفض) فالكلمة عنده تقاس قيمتها قبل كل شيء بمدى رفضها وثوريتها ، تماما كما كانت عند غسان كنفاني الذي يتخذه الشاعر قدوة ومثالا ثوريا يحتذى :

« غسان يا زماننا الجديد
قضيت فينا العمر طائرا
من الوريد .. للوريد »

وهم قد يفلحون في انهاء قائل الكلمة الثورية ، ولكن الكلمة تبقى محرضا ومشعلا ينير للرافضين طريقهم فان كان غسان قد مات كشخص ، فان كلماته بقيت مثالا حيا يفجر الثورة والغضب :

« الثورة التي كتبتها
بالحبر والاعصاب والاسى
لن تنتهي
فأنت زارع الشموع في حواسنا
وأنت صوتنا الكبير للوطن »

ان نظيم يطرح علينا بذلك مقولة القصيدة الثورية ونحن لا نشك في ان القصيدة الثورية تقاس بمدى قدرتها على الكشف وعلى التحريض معا ، قبل الثورة وبعدها ، فالى اي مدى وفق الشاعر في مساره هذا؟ في البداية كانت الغربة ، وفي الغربة كانت معاناة ابادة شعب ينتمي الشاعر اليه ، والشعب هو خلفية هذا الوطن الذي يباد كل يوم ايضا :

« وطن ، انت بين الجراح التي
صلبتني
وبين البكاء الذي
يتلوى كأفعى بصدري
وانا بين قارعتين
الجسور التي قاومت
والظلال التي استسلمت »

وكان الانتظار ، انتظار ان يحمل الزمن بشارة خلاص لهذا الشعب . والشاعر ينتظر ، ينتظر حاملا همومه في حاضره ، وتعاسة ماضيه ، وسوداوية مستقبله :

« يطول انتظاري
يطول فأهمل وعي السنين التي
أزهرت في قيودي
وأسلم للحلم وجهي »

ولكن الانتظار لم يعط سوى الفراغ . انه لم يمح الغربة القاسية والقهر المرير :

« ها هي النخلة تهتز
والبحر يهتز
والرمل والغربة الشاسعة
ها هو عمر الكآبة والقهر
يتشقق في رحلة الحلم »

ولكن كان هناك من لم يركن لارصفة الانتظار . بل حمل اخرون همومهم يفجرونها غضبا وثورة ودما وشعرا غاضبا يمحون بذلك تعاسة حاضرهم ، مستقرئين فرحا في مستقبلهم ، والشاعر احس بهم لانه ايضا يعاني مثلما يعانون :

« كل النجوم التي لاحقتني
ـ رسائل امي
المناشير ،
والشعر والدم .
ها هي في حضرتي الان
تخطر مسكونة
بالطفولة والحب والنار
والمعجزة » .

فكان لا بد من الانتماء اليهم ، والسير معهم، والبدء بما شرعوا به من ثورة ورفض :

« ومنك سأكمل
ـ يا كوكب الشعر
والنار
والحب
انشودة الجلجلة » .

ان طريق الثورة هذا، هو الطريق الذي سيؤدي الى حيفا وعكا ويافا والجليل ، الى كل تراب الوطن المحتل ، الوطن الذي يحتفظ الشاعر بذكريات لا تحصى منه :

« فما بين عكا وحيفا
طيور
ودماء
غرزت اشتهائي على صدرها ».

وغزة ايضا جزء من ذكريات الشاعر في الوطن المحتل ، انها بالنسبة اليه :

« ليست شجرا او ورقا
وخياما تخذلها الريح
ليست غصنا أتعبه التلويح » .

غزة بالنسبة اليه تاريخ طويل من الثورات والتضحية وارتال الشهداء : انها مثاله للوطن الذي عرف عدم جدوى البكاء والكلمات ، فلجأ للطلقة الرافضة طريقا للخلاص ، ان غزة :

« أجمل ما فيها صدق الطلقات
في عصر
لم تنفع فيه الكلمات »

انها الثورة ، والثورة مباركة ومقدسة اينما كانت طالما انها تعني رفضا ، فعبد الخالق محجوب شهيد قضية آمنت بالثورة والرفض خلاصا من مدارة الواقع، لذلك يخصه بقصيدة خالصة يهديها اليه ، تتداعى من خلالها الثورة في فيتنام واماكن اخرى :

« نغوين فان تروي » رفيقي
نام الليلة في جسدي وتفجر
غنى قبل الرحلة للاشجار
وللاطيار
على شطآن الميكونغ » .

بل ان اندماجه المبدئي في الثورة يصل به الى حد الذوبان التام والانسفاح الكامل في جسد الرفض الثوري بأروع تضحية ، ولنستمع الى هذا المثال الرائع :

« فخذوني وازرعوني قنبلة
أو خذوني لضجيج المقصلة
فخذوني قبل ان تذبل منا
زهرة النيران يوما
وتشيخ القافلة ».

بل لنستمع الى توسله الحار للوطن كي يقبله أضحية في ثورته ، والرائع انه يضحي متفائلا بجدوى موته ، فصحيح ان الثورة لم تثمر تماما للان ، ولكن لا بد من ان تزهر حدائقها يوما ما دام هناك من يبذر نفسه في تربتها :

« فخذيني ، انت يا ريح بلادي
وانثريني
ربما لم يأت حتى الان
وقت الرفض والغزو الجميل
ولتكوني اول الغيث الذي
يحمل موتي
للزمان المستحيل » .

ولعل بهجة الثوري في ثورته انه لا يخاف الموت ، فالموت هو غايته ما دام سيؤدي الى تحقيق هدف الثورة المنشود ، ومن هذا المنطلق يأتي صوت الشاعر :

« انا ان مت دعيهم يحرقوني
ثم جيئيهم بصدري ، واتركيهم ينثروني
فوق أهداب المسارات البعيدة
نحن لا ننجب قبل الموت
مرات عديدة » .

هكذا هي الثورة ، والثورة عند نظيم هي الثورة حيثما كانت : في فلسطين ، او في السودان ، او في فيتنام ... فتأتي تحيته باسم الثوار الفلسطينيين الى الشعب الفيتنامي البطل ، متوصلا من خلال هذه التحية الى صيغة مشتركة للثورتين تنص على ان :

« هكذا لغة المقاتل
اصبحت سحر القضية
طائر فوق الزناد
وطلقة في البندقية »

ان الثورة لم تترك لديه مجالا للعشق الانثوي الذاتي ، فالثائر لا وقت لديه للمرأة ان كانت ستشغله عن القضية ، حتى في اللحظات القليلة التي يتجه بها للانثى ، كان الوطن يحضر من خلالها ملحا عليه المتابعة الرافضة :

« جاءت القوافل
يا فارعة الطول
شعاعا
فأعبر داخل عمري
أتنقل بين اللون الاحمر والازرق
فأرى وطني ».

نحن نبارك وننفعل مع الشاعر في اندفاعه الثوري الحار هذا ، ولكن لنا مآخذ على هذا الاندفاع رغم اعجابنا الشديد ومشاركتنا له .

ان هذا الحماس الثوري الذي رأينا بعض جوانبه جعل عين الشاعر تسهو عن معاينة بعض الجوانب معاينة هادئة : فالثورة تعني ايضا تحليل الامور بهدوء ، تعني معرفة السبب ومعالجته ، استطلاع الهدف ثم الاطلاق عليه ، انها تعني ايضا التغني بالمرأة ، وبالطبيعة، فمحمود درويش وسميح القاسم وزياد توفيق ، رغم ثوريتهم المتدفقة التي عاشوها تجربة حية ولا يزالون ، اعطوا لانفسهم فسحة يتغنون فيها بالمرأة والطبيعة والجمال ، تماما كما فعل بايرون وناظم حكمت وبدر السياب ...، وشعراء فيتنام كانوا يخوضون باشعارهم حروبا مع الغزاة ، ولا يتحرجون من التغني بالمرأة التي انجبتهم مقاتلين وعشقتهم محاربين ثوارا، فلماذا كل هذا التصلب في مواقف بعض شعرائنا ؟!

ان ملاحظتي ـ ولا اعلم ان كنت على صواب ـ هي ان القصائد في الديوان اتت مثل الموج الجارف في

نهر ؛ لا اعلم أن كنت سأذكره عندما اصل الى ماء يسيل باعتدال ؛ ولكنه يملأ الضفتين ؛ واستميح الشاعر عذرا بان أذكره باننا هنا على الجبهة ومواجهة للعدو نركز على مبدأ عسكري يصح على الادب يقول : ان تعاين الهدف وترمي عليه بتسديد محكم فتصيبه بطلقة واحدة ، افضل من أن ترمي عليه عشرات الطلقات لتصيبه بطلقة منها ، واعني من مثالي هذا التكرار الواضح في مضامين القصائد ، وهذا امر طبيعي الحدوث في ديوان لفع نفسه بحس ثوري .. وثوري فقط .

هذا في المضمون ، اما في الشكل ، فالشاعر في موقع لا بأس به ؛ فالصور الشعرية في غالبيتها كانت موفقة في نضوجها ، وتوظيفها لصالح البناء الشعري، وهاكم مثالا :

« يستحيل الورد .. جمرا
حينما أبصر جسمي
يستر الليل باثواب الدعابة
يستحيل الوعد ... جسرا
حينما ابصر رأسي
يملأ الساحات عريا .. وغرابة » .

ولكن ثمة صورا اخرى لا نملك الا ان نقف عندها محترزين ، من مثل :

« لا تزعجوا القمر الذي
في ساعدي ينمو »

أوليس هذا قصورا في التصوير ومدعاة للسؤال عن شكل وماهية القمر الذي يختبيء في نسيج الزند او المعصم ؟!

اخيرا :

ان الشاعر نظيم أبو حسان في تجربة ديوانه ، يبقى شريحة رافضة وثورية نحتاج اليها في مرحلة كفاحنا وظروف أمتنا ، شريحة نشاركها حس الرفض ونفس الثورة متمنين تقدم هذه التجربة في ديوان اخر .

الجبهة السورية ـ اواسط اب ١٩٧٩

هوامش :

١ ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ١٩٧٥
٢ ـ سورة العلق ـ مكية ـ الايات ١ ـ ٢ ـ ٣
٣ ـ سورة الزلزلة ـ مدنية ـ الايات ١ ـ ٢ ـ ٣
٤ ـ سورة مريم ـ مكية ـ الاية ٢٢
٥ ـ سورة النبأ ـ مكية ـ الايات ٩ ـ ١٠
٦ ـ سورة الناس ـ مكية ـ الايات ١ ـ ٢
٧ ـ سورة البروج ـ مدنية ـ الاية ١١
٨ ـ نشر بالتعاون مع اتحاد الكتاب العرب بدمشق ـ مطبعة الشرق ـ لحلوح ـ حلب ١٩٧٩

صدر حديثا :

طيور بعد الطوفان

للشاعر

ياسر بدر الدين

يصلك عبر لوحاته الملحمية بأدق الامكنة حساسية ، حيث ترتفع اغاني الوجدان المعذب لتمتزج بعذابات النفس التواقة الى الخلاص.. النيران في كل مكان . تشب من البقايا ومن البدايات ، والرياح تحرك الصواري التعبة ؛ والايقاع دافيء وهادىء او بارد متضجر .

انه المعادلة الاصعب لحركات بطيئة وسريعة ، تنبعث وتتلاشى على الشواطىء والسفوح والمطلات ، انه المعادلة الانقى لحب قديم فجر الرواسب وحرك الحي من جذوره ، وهو المعادلة الشاملة حيث يبدأ النمو بين الخرائب الرمادية والاسواق العائدة الى الحياة .

« طيور بعد الطوفان » مجموعة من اللوحات الرومانسية النافرة بشكل أجنحة تطير نحو عالم أجمل وأقوى .

منشورات دار الآداب